

من أجل تعايش إيجابي في مجتمع متعدد الثقافات

Towards Positive Coexistence in a Multicultural Community

د. حميد الداودي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

المصطلح	الكلمات المفتاحية
يتناول هذا البحث إشكالية بناء تعايش إيجابي في مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الأديان، انطلاقاً من المرجعية الإسلامية وما تتضمنه من تصورات حول التنوع الإنساني والتكريم الآدمي والبر والقسط والتعاون على الخير. وينطلق البحث من ملاحظة أزمة قيمة وحضارية أسهمت في إضعاف الروابط الإنسانية وظهور نزعات الإقصاء والهيمنة والصدام الثقافي. ويهدف إلى بيان مقتضيات التعايش وضرورته، وتشخيص أبرز عوائقه، ثم اقتراح قواعد وحاضنات فكرية وقيمية ومؤسسية كفيلة بتحويل التعايش من مجرد تجاوز سلبي إلى شراكة إنسانية إيجابية. واعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، باستقراء النصوص القرآنية والحديثية والتفاسير وتحليل مضامينها وربطها بقضايا التعدد الثقافي.	(التعايش؛ الحوار؛ التعدد الثقافي؛ الاختلاف)
Abstract	Keywords
(Positive coexistence; cultural pluralism; religious diversity; shared values; human dignity; dialogue.)	This study examines the problem of building positive coexistence in a multicultural and multi-religious society from an Islamic perspective. It clarifies the requirements and necessity of coexistence, identifies its major obstacles, and proposes intellectual, ethical, and institutional foundations for transforming coexistence into positive human partnership. The study adopts an inductive-analytical approach based on the Qur'anic and Prophetic texts and the exegetical source. It concludes that positive coexistence does not require abolishing differences or dissolving identities; rather, it requires recognition of diversity, protection of human dignity, justice, benevolence, shared values, and responsible dialogue.

مقدمة

من أهم تجليات الإفلاس القيمي الذي أفرزه بناء المجتمعات الحديثة ما تعلق بالإنسان فيها، من حيث التخلي عن كثير من الصفات الإيجابية التي سددت حركته في الحياة ووجهت إنجازاته نحو نفع الآخرين في إطار الارتباط الإنساني. مثل هذا المأزق الحضاري تحدياً كبيراً أمام تحقيق إنسان المجتمع، يتفاعل مع غيره بهذه الصفة. ومن أهم ما ساهم في هذه البلوى ذلك السعي الحميم لمشاريع التحديث المعاصرة لتغيير بنية المجتمعات التقليدية - بما فيها من عناصر قيمية إيجابية.

ومن الملاحظ أن الاهتمامات بحركات المجتمع تطورت وتنوعت بقدر ما أفرزته النظريات الاجتماعية من رؤى وتصورات ومفاهيم ارتدت على المجتمعات بشر لا يستهان به، الأمر الذي استدعى منظومة القيم الفطرية في الإنسان والمبادئ الدينية التي يؤمل فيها الكثيرون إيجاد مداخل للرد الحضاري.

من هنا تتجلى أهمية الوعي بالذات الحضارية التي تمثل البوصلة المحددة لاتجاهنا وتؤطر حركة وجودنا وتحتف بأمالنا ونصنع بها مستقبلنا، وهي خميرة نهوضنا من جديد، شريطة التولي في السعي الإصلاحية شطر النفوس والعقول والقلوب لاستنفار طاقاتها تأكيداً على أنها مفتاح تحديد النسيج المجتمعي وترشيد العلاقات الإنسانية.

مشكلة البحث:

تتمثل إشكالية البحث في السؤال الآتي: كيف يمكن تأسيس تعايش إيجابي داخل مجتمع متعدد الثقافات والأديان، بما يحفظ الخصوصيات العقدية والثقافية، ويعصم من الاستكبار والإقصاء والهيمنة والصدام، وييسر في الوقت نفسه مجالات التعاون القيمي وتحقيق المصالح الإنسانية المشتركة؟

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها:

- بيان أهمية التعايش الإيجابي في المجتمعات متعددة الثقافات والأديان، والكشف عن ضرورته في ترشيد العلاقات الإنسانية وتحقيق الاستقرار المجتمعي.
- تأصيل مفهوم التعايش من خلال استقراء جملة من النصوص الشرعية واستحضار ما تضمنته من مبادئ وقيم مؤسّسة للعلاقة مع الآخر، بما يحفظ الخصوصيات الدينية والثقافية ويمنع الإقصاء والصدام.
- الكشف عن أبرز العوائق التي تحول دون قيام تعايش إيجابي، ولا سيما المفهوم المسبقة، ورفض الآخر، والاستعلاء الثقافي، وادعاء المركزية، والهيمنة، والاستكبار.
- استخلاص القواعد والحاضنات القيمية للتعايش، من خلال إبراز مبادئ البر والقسط، والتكريم الآدمي، والقيم المشتركة، والتعاون على تحقيق المصالح الإنسانية.
- استثمار بعض خصائص العقل المسلم المالكي في بناء رؤية عملية للتعايش، واستجلاء ما يمكن أن تسهم به المرجعية العلمية والفكرية في صناعة الإمامة والقيادة وترشيد الشاكلة الفكرية.
- تحديد جملة من الضوابط المنهجية التي ينبغي أن تحكم مراكز صياغة الشاكلة الفكرية، بما يعزز محورية الذات مع الانفتاح على الكل، ويحقق الإيجابية والانضباط والمراعاة على الأهداف الإصلاحية.
- الإسهام في بناء تصور إسلامي متوازن للتعايش يجمع بين المحافظة على الخصوصية العقدية والثقافية والانفتاح على التعاون الإنساني، بعيداً عن منطق الهيمنة أو الذوبان أو الصدام.

الدراسات السابقة:

حظي موضوع التعايش بين أتباع الثقافات والأديان المختلفة باهتمام ملحوظ في الدراسات الفكرية والاجتماعية والشرعية المعاصرة، وتنوعت المقاربات التي تناولته بحسب زوايا النظر ومجالات التخصص. فقد اتجه جانب من

الدراسات إلى بحث التعايش من منظور حقوقي وإنساني، مركزا على مبادئ المساواة والاعتراف بالاختلاف واحترام الخصوصيات؛ بينما تناولت دراسات أخرى الموضوع من منظور ديني وحضاري، من خلال استقراء النصوص الشرعية المؤسسة للعلاقة مع الآخر وإبراز القيم المشتركة بين بني الإنسان. كما اهتمت بعض الدراسات ببحث إشكالية التعدد الثقافي والديني وما تثيره من تحديات تتصل بالهوية والخصوصية والاندماج والصراع الثقافي.

مع أهمية هذه الجهود، فإن البحث الحالي ينطلق من مقارنة تجمع بين التأصيل الشرعي للتعايش وتحليل عوائقه وبناء قواعده العملية، مع إيلاء عناية خاصة بالقيم المؤسسة للعلاقة مع الآخر، وبخصائص العقل المسلم المالكي وإمكان توظيفها في صناعة الشاكلة الفكرية وترشيد القيادة والإمامة. ومن ثم، لا يقتصر البحث على بيان مشروعية التعايش أو الدعوة إليه، وإنما يسعى إلى الانتقال من التأصيل النظري إلى تحديد القواعد والضوابط التي يمكن أن تجعل منه ممارسة إيجابية تحفظ الخصوصية وتفتح مجالات التعاون الإنساني.

خطة البحث:

- المحور الأول: مقتضيات التعايش وضرورته
- المحور الثاني: عوائق التعايش
- المحور الثالث: قواعد وحاضنات التعايش
- المحور الرابع: من أهم ضوابط مراكز صياغة الشاكلة الفكرية
- الخاتمة

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي الجزئي والمنهج التحليلي؛ وذلك باستدعاء نصوص من الوحي واعتماد بعض أقوال أهل الذكر في تدبرها.

المبحث الأول: مقتضيات التعايش وضرورته

يتبوأ هذا الموضوع مكانة متميزة بالنظر إلى الظروف المستجدة، والتحديات الواقعية التي دعينا إلى مواجهتها. ذلك بأن التعايش أمر ضروري لأن الله هو الذي خلق الجميع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات 13، فالخالق سبحانه الواحد، خلق الناس من مصدر واحد، وهم متنوعون ومختلفون، ثقافيا ودينيا. هذا أمر فيه إرادة إلهية واضحة؛ اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ سورة هود 118. 119.

باستعراض جملة من أقوال أهل التدبر في هذه الآية الحكيمة يتبين بدهية سنة التنوع في معتقدات الناس:

قال ابن كثير: "وقيل بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، قال الناس مختلفون على أديان شتى إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ فمن رحم ربك غير مختلف فقيل له لذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق لعذابه وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش، وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله تعالى: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم، قال فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد الفراء وعن مالك فيما روينا عنه من التفسير ولذلك خلقهم قال للرحمة وقال قوم للاختلاف: إما للرحمة خلقهم، وعند طائفة منهم: وللإختلاف خلقهم. لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون"¹.

وقال البغوي: "قال الحسن وعطاء: وللإختلاف خلقهم. قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم. وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف. وحاصل الآية: أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل الباطل للاختلاف"².

¹ تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ج 4 ص 310 - 311

² معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ج 2 ص 172.

وقال سيد طنطاوي: "ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله عَوَانٌ بَيِّنٌ ذَلِكَ أى بين الفارض والبكر.

فيكون المعنى: وللاختلاف والرحمة خلقهم، أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف".³

قال الألوسي: "فكأنه قيل: وللاختلاف خلق الناس، على معنى لثمرة الاختلاف من كون فريق في الجنة وفريق في السعير خلقهم. واللام لام العاقبة والضرورة، لأن حكمة خلقهم ليس هذا، لقوله سبحانه: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ولأنهم لو خلقهم له - أي للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل. ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور، فيكون التقدير: إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس.

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي. ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة. فيكون المعنى: "وللاختلاف والرحمة خلقهم أي أنه سبحانه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف".⁴

قال ابن عجيبة: "مقتضى الحكمة وجود الاختلاف؛ ليظهر مقتضيات الأسماء في عالم الشهادة؛ فاسمه الرحيم يقتضي وجود من يستحق الكرم والرحمة، وهم أهل الإيمان، واسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود من يستحق الانتقام والقهرية، وهم أهل الكفر والعصيان...

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾: بعضهم على الحق، وهم أهل الرحمة والكرم، وبعضهم على الباطل، وهم أهل القهرية والانتقام، أو مختلفين في الأديان والملل والمذاهب، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾: إلا ناسًا هداهم الله من فضله، فاتَّفَقُوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاؤوا به، وهم المؤمنون..

³ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ج 7 ص 294.

⁴ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، ج 6 ص 357.

وقوله: ﴿وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ﴾: إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة؛ أي: ولتكون عاقبتهم الاختلاف خَلَقَهُمْ، وإن كان الضمير يعود على "مَنْ"، فالإشارة إلى الرحمة؛ أي: إلا من رَحِمَ ربك وللرحمة خَلَقَهُمْ.⁵

وقال ابن عاشور: "إن الله قادر أن يجعلهم أمة واحدة متَّفِقة على الحق مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا. ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلاً للتطوُّح بهم في مسلك الضلالة، أو في مسلك الهدى، على مبلغ استقامة التفكير والنظر والسلامة من حُجُب الضلالة، وأن الله تعالى لما خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قَبُول الحق بحسب الفطرة، التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال، وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، لم يَدَّخِرهم إرشاداً أو نُصْحًا بواسطة الرُّسل ودعاة الخير ومُلقِّنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقيَّة الذين يَنهون عن الفساد في الأرض. فمن الناس مهتدٍ، وكثير منهم فاسقون، ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام مَتَّحِد لا تَعُدُّوه، كما خَلَق إدراك الحيوانات العُجْم على نظام لا تتخطَّاه من أول النشأة إلى انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشاة في زمن آدم - عليه السلام - كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلى انقراض العالم.⁶

فإذن حين يشاء الله رب العالمين أن يختلف الناس فلا مناص من التعارف والتعايش، وقد تعهد القرآن بأن الله قد خلق الأرض للجميع. والطيبات أخرجها للناس، مطلق الناس، قال ربنا الحكيم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف آية 32.

جعلهم في هذه الأرض، وقدرهم أن يعيشوا معاً، وأن يتواجدوا معاً في لحظة واحدة، وأن لا حق لأحد أن ينفي الآخر تحت أية ذريعة أو مسوغ أو سبب. حتى ولو أنك تحمل الحق وتعتقد أنك علمته من خلال دراستك النص الإلهي والحديث النبوي، فتبين لك المراد، هذا المستوى من اليقين عندك لا يسمح لك أن تنقل إلى الآخرين رغبتك فرضاً وإكراهاً، لأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة 256. والله قد خلق الناس ويسر لهم الاختيار لتستبين مستوياتهم، ولم يكن المجتمع الذي أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بداياته الأولى، ثم الدولة بعد ذلك عندما تيسر أمر إدارة شؤون الناس في المدينة بشكل حر ومستقل، لم تك هذه الدولة خاصة بالذين آمنوا بالله

⁵ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس بن عجيبة الحسني الأنجزي الفاسي، ج 2 ص 567.

⁶ تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد، الطاهر بن عاشور ج 12 ص 187.

والرسول صلى الله عليه وسلم؟ كلا. الأقرب أن يقال إنها دولة الحق والإيمان، ودولة الخير التي شملت جميع الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، ومنافقيهم وخلصهم في الإيمان.

لقد استوعبت حركة النبوة المختلف فيه والمختلفين، وأعطت كل واحد حجمه، مع الإصرار على عرض الحق للجميع. إذ من حق الناس حتى ولو أُذن لهم أن يختلفوا، من حقهم علينا نحن المسلمين أن يسمعو صوتنا، وأن يدركوا قناعاتنا، وأن يستشعروا خوفنا عليهم، وإشفاقنا عليهم في هذا الاتجاه.

ومن ثم لم تشترط الأحكام الشرعية الإسلام في المعاملات التجارية التي تخاطب الناس عموماً وتنظم علاقاتهم، حتى القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، أُذن له أن يكون من المستفيدين من هذه القربات أناس غير مسلمين. ومن الأوقاف الأوائل التي وقفها المسلمون وقف صفية على أخيها وكان يهودياً وبإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته.

لماذا نحن مطالبون أن نفقه التعايش الإيجابي؟ لأن الإسلام الذي ننتمي إليه دين عالمي، يعني أننا متأكدون أن الفرصة الأخيرة للبشرية جاءت على لسان ممثل الأنبياء والرسل كلهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الأمة الإسلامية، تنقسم إلى قسمين: أمة الاستجابة وأمة الدعوة. فالناس كلهم مجال لنا، و الأرض كلها وطن لنا، وبنو آدم نتقاسم معهم الإنسانية والأدوية، وأنهم موضوع من موضوعات اهتمامنا من باب الشفقة، ونحن أخرجنا للناس كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ سورة آل عمران 110، "لناس" أي لأجل الناس وخدمتهم، ولنفعهم ما أمكن ودفع الضر عنهم حسب القدرة والاستطاعة، بل إن القرآن يدعونا إلى أن نتحرك فوراً إذا كنا قادرين لإنقاذ مستضعفين يراد بهم الكيد والإكراه والظلم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ سورة النساء آية 75.

بناءً على ما سلف فإن التعايش الإيجابي هو الذي يثمر في عالم البشر، حتى ولو بقوا مختلفين، ويعمر الأرض فتصير ساحة للتعاون على الخير والبر في ظل التنوع الثقافي والاختلاف الديني..

المبحث الثاني: أهم عوائق التعايش

العائق الأول: عدم الرغبة في الاستعداد لقبول الآخر

يقتضي التعايش طرفين أو أطرافاً عدة، وقد تكون أنت صاحب عقلية تسع الجميع، يقر حرية الناس في اختياراتهم، ولديك رغبة حقيقية في التعاون مع الجميع بشأن ما ينفع الناس، وتعذرهم فيما اختلفوا فيه معك، ولكن الطرف الآخر ليس كذلك، قد يكون إقصائياً، لا يطبق التنوع؛ يود لو أنك تنساق مع هويته الحضارية، ومع تصوره وجهازه المفهومي، وتخضع لذلك خضوعاً مطلقاً، بل يستعمل القوة في سبيل ذلك. وفي تاريخ البشرية نماذج عديدة، حيث هناك منطقان، منطق " أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ " سورة الأعراف 82، و " لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا " سورة الأعراف 88، و " لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا " سورة إبراهيم 13، قابله منطق آخر " إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ " سورة هود 26، " يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ " سورة يونس 71، " يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ "، سورة هود 51 " قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " سورة الزمر 39، " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " سورة الكافرون 6، وغير ذلك من عشرات النصوص التي تبين أن هناك مسلكين متدافعين يشغلان بقوة.

العائق الثاني: الفهم المسبقة

هناك تصورات تاريخية، أو مواقف سيئة في بعض المجتمعات صنعت فكراً معيناً أتى من استغله ليشكل صورة غير حقيقية عن الطرف الآخر، مما يؤدي إلى سوء التعايش أو عدم التعايش أصلاً. إذن نحتاج أن نبحت باستمرار وبعمق عن جذور الخلفيات المسبقة لنزيل ما تعلق بها من الظنون والأوهام.

العائق الثالث: ادعاء مركزية العالم ونفي الشريك الثقافي

تتجلى المشكلة في رؤية طائفة أو حضارة ما أنها مركز الكون، وأنها مصدر المعرفة والعلم والقيم والمفاهيم حول الحياة، ولا شريك لها في هذا. فإذا وصلت جماعة من الناس إلى هذا المستوى، فتلك مشكلة حقيقية كبيرة. ما الفرق بينها وبين من قال: " مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " سورة غافر 29، أنا هو مصدر كل شيء. من كان يعتقد نفسه كذلك، فقد ارتكب عائقاً، خصوصاً إذا فرض ما يعتقد ويؤمنه على الآخرين. هذا الأمر لا يتعلق بمن يعتقد أنه صاحب حق، لأن كل واحد يتحدث عن قناعاته، موقن بأن ما يحمله فكرة صحيحة.

العائق الرابع: خطيئة الهيمنة والاستكبار والاستعلاء والرغبة في الصدام

هذا أمر في غاية الخطورة، ولا علاقة له بقوله تعالى "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" آل عمران 139، هذا ليس استعلاء بل علو؛ لأن من اعتقد فكرة ثم آمن بها ورآها صوابا دافع عنها وضحي من أجلها، وهذا موقف سليم بل هو مطلوب. أما الاستعلاء بالفكر البشري والنظريات البشرية، ثم الاستكبار بها على الآخرين، فهو بمثابة جريمة إنسانية..

ومن العوائق الخطيرة التي تذكر في هذا السياق، أن يأتي شخص ويقول: التاريخ انتهى هنا، كما أراد صاحب "نهاية التاريخ"⁷، أو أن الحضارات كتب عليها حتما أن تتصارع، كما قرر مؤلف "صراع الحضارات"⁸. إن هذه الأيديولوجية القاتلة للإنسان تستبطن عقلية قديمة، تقسم الناس إلى أحرار وأسياد وعبيد خاضعين تابعين. التاريخ لم ينته عند من أصدر أنه قد انتهى، والحضارات ليس مكتوبا عليها أن تتصارع دائما، بل هناك إمكانية للتعايش وللحوار بين الثقافات..

المبحث الثالث: حاضنات التعايش

الحاضنة الأولى: ضرورة البر بالآخرين والقسط إليهم

لا بد أن نؤمن بأنه يمكن أن تنتقل من صراع الحضارات إل حوار الثقافات، لأن البشرية لم تستفد من الصراع إلا الدمار والحروب؛ وما العوالة إلا محو للإنسان ومصادرة لحيته وإرادته. وعندما تشعر شعوب أنها مقهورة، مغلوبة، تُحتل أرضها، وتُنتهك أعراضها، كيف يمكن أن نتحدث عن التعايش؟. يقول ربك سبحانه وتعالى كلماته: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿سورة الممتحنة آية 8-9.﴾

⁷ نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرانسيس فوكوياما، ترجمة فؤاد شاهين، وجميل قاسم، ورضا الشايب، إشراف ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1993م.

⁸ صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، هنتنغتون صموئيل، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوة، القاهرة، 1998م

مقتضى قول الله الكريم أن البر والقسط ثابت مع تنوع الملة؛ مع المخالفين المواعدين، المسلمين، مع الأحرار الذين يرفضون أن يستعبد الإنسان. نحن مطالبون بأن نبر بمؤلاء، وأن نحسن إليهم، خصوصا إذا علمنا أن المجتمع الذي يؤسسه القرآن منذ أول انطلاقة قائم على التعايش، الأسرة المسلمة على سبيل المثال، تتكون من زوج مسلم، وزوجة مسلمة، ولكن لها شكل آخر، فقد تكون المحصنة من الذين أوتوا الكتاب امرأة لزوج مسلم في أسرة مسلمة. وعلى الرجل أن يحب هذه المرأة وأن يكرمها ويؤدي جميع حقوقها الزوجية، وأن يقدر عائلتها وأصهاره الذين هم ليسوا على مذهبه وملته. فمنذ الانطلاقة، القرآن يعطيك إمكانية صناعة أسرة تعطي للتنوع الثقافي والاختلاق الديني مجالا ولو كان صغيرا يتعايشون فيه، مع المصاحبة بالمعروف لإسناد المؤسسة الحاضنة للقيم، والعاصمة من تأثير المعتقد السلبي على النسيج المجتمعي.

أما عندما يتعلق الأمر بمن يخرجنا من ديارنا ويقاقلنا في ديننا ويكرهنا على اعتناق غير ملتنا، ويتعاون مع كل من يجرم في حقنا ويحتل أرضنا وينتهك عرضنا، فالتعايش هنا ليس حقيقيا، إنه عين الضعف والهوان، وإنه الذل الذي أمرنا أن نرفضه، طبعاً لا تنتظروا من الآخرين أن يحترمونا إذا كنا نسمي الانحزام والاستسلام والهوان تعايشا، سيقول: إنكم تكذبون على أنفسكم، ليس هذا تعايشا، هذا فرض الأمر الواقع، وأنتم خاضعون له. ولن يحترمنا أحد إذا قلنا بغير المقاومة للشر والأذى الذي يمكن أن يلحقه غيرنا بنا ممن لا يريد للإنسان أن يعيش حراً ويقتنع بما يريد من معتقدات ومن اتجاهات في الحياة عموماً. هذا أول ضامن لأن يتحقق التعايش الإيجابي ضمن إطار التنوع الثقافي، والاختلاف الديني. ومن ثم تعد الأفكار الداعية إلى نبذ الأصول الممثلة لجذور الأمة ومنابعها الذاتية عقبة في طريق انبعاث حركية فكرية جادة، لأن في ذلك تعطيلاً لهويتها وإفناء لماهيتها، كما أن الذين يغلقون أبوابهم في وجه ما ينجزه الآخرون من خير وحكمة لا يسلكون سبيل الرشاد الحضاري. ومن ثم يتقرر أن المنهج السليم هو الانطلاق من مصادر المسلمين الأساسية ومرجعيتها الثابتة نحو التفاعل الإيجابي مع معطيات العقل والعصر.

إن التأمل في حركات المجتمعات التي حافظت على وجودها وماهيتها يكشف أنه ما من قوم أصروا على صياغة مشاريعهم وفق منظومتهم القيمية وصابروا وهم يفكرون لبناء حركيتهم الاجتماعية، ثم أصروا على خطهم في الحياة، وثبتوا في مجراهم الحضاري، إلا كونوا لأنفسهم ذاتا مستقلة وموقعا وازنا بين الناس، مقاومين أساليب التنميط والتحنيط.

الحاضنة الثانية: التكريم الآدمي فوق كل اعتبار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء آية 70]. الأصل في الآدمي أن يُكْرَمَ بغض النظر عن معتقده، وأن يصاب وتحتزم حرته وكرامته واختياراته، ولا يحق لأحد أن يفرض عليه أي شيء، حتى ولو كان ديناً حقاً. لو شاء ربك لأنزل آية من السماء وظلت أعناق الناس لها خاضعين ولكانوا كلهم مؤمنين، إنما شاء ربك أن يكون الناس مختلفين ولذلك خلقهم. الله خلق المؤمنين وغيرهم، ومن ثم فالتكريم للجميع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الانفطار: 6. وإذا كان الإنسان هو المصدر الأساس والعنصر الأبرز في الاختلالات الاجتماعية الكبرى، فإنه كذلك المنطلق الرئيس والفاعل المؤثر في أية عملية إصلاحية حقيقية، ومن ثم يسوغ القول إن تحقيق هدف التعايش الواسع يدفع المهتمين به إلى است فراغ وسعهم لصياغة الرؤى وتكوين المفاهيم وسن برامج ووضع مخططات تستنفذ كل طاقات الإنسان الظاهرة والباطنة حتى يتحقق نوع الإنسان الذي يصنع الحياة اللائقة به ضمن النسيج العلائقي.

إن الإنسان خلق كريماً، إذا قويت فكرته استقامت سيرته وصفت روحه وارتفع بذلك في توقيير الحق وخدمة الخلق، وازداد منسوب شعوره بالمسؤولية إزاء مجتمعه، بفقته الجوار وقيم الصدق والعدل والوفاء بالعهد والأمانة التي لا تتغير.

الحاضنة الثالثة: الانطلاق من القيم المشتركة الثابتة الضامنة للتساكن

يستطيع الناس في هذه الأرض الصغيرة جداً أن يتعايشوا بالقيم المشتركة التي يعترف بها الجميع، قيم مشتركة ثابتة ضامنة لهذا التساكن. ما أكثر هذه القيم، ونحن المسلمون نستطيع أن نسهم فيها بقسط وافر جداً، بل إننا أمة القيم. ومن ثم نحن قادرون على أن نقدم للإنسانية كلها ما يسعدها على مستوى القيم، فلا نسرق ولا نغدر ولا نكذب ولا نخون،.... هذه كلها أمور في غاية الأهمية. طبعاً هنا، أود أن أثير قضية في غاية الأهمية؛ يمكن أن نسمع من أناس من غير المسلمين أن يكتبوا كتباً، مثل: 'الإسلام شريكاً'⁹، يقررون فيها أن الإسلام والثقافة الإسلامية جزء من البنية المجتمعية التي يتواجد فيها المسلمون، لأن الإسلام لا يخص أناساً معينين، بل يعم الخلائق بأصوله الكبرى وأسسها

⁹ فريتس شتيبات، الإسلام شريكاً: دراسات عن الإسلام والمسلمين، ترجمة عبد الغفار مكاوي، بيروت، 2004م.

القيمية، مع اختلاف الفهوم وتنوع مناهج تأويل بعض قضايا العقيدة. يتعين التأكيد على هذا الأمر لأن هناك نصوصاً قرآنية تدعو إلى التلاقي على المشترك، وأخرى تؤكد على تميز المسلمين بخصائص تفردهم. وقد يأتي شخص إلى النص الذي يتحدث عن المشترك الذي يهدي إليه النص القرآني فيجعله هو الإسلام ويدعو إلى تذويب الفوارق، ويدخل في دين جديد ليطلق عليه ما يشاء من التسميات تحت إطار التعايش، هذا ليس تعايشاً لكنه قتل له؛ التعايش هو الإبقاء على الاختلاف وإمكانية التلاقي مع هذا التنوع، نحن نقول للآخرين إننا نؤمن بالله والرسول والجنة والنار، والأحكام الشرعية كلها، ونؤمن كذلك بأن البشرية يمكن أن تلتقي على قواسم مشتركة، هكذا يجب أن نبليغ للناس. ومن ثم تستبين الحاجة إلى أهل التخصص، وأهل الذكر، من العلوم الشرعية ومن الراسخين من أئمة الرشد الكبار.

إن النظر إلى ما يجمع الأمة من المشترك من الأصول والمبادئ والأهداف الكلية يقود إلى إدراك سعة مساحات التقاء أفرادها وتعاونهم وتناصرهم، وإلى الخطأ المبين الذي يقع فيه من يضيق منها ويوسع ما يختلف فيه الناس، ذلك بأن التنوع داخل مرجعية الأمة الكبرى عامل إثراء واغتناء للخطاب الفكري والحركي.

الأمر الذي يفترض القدرة على التفاعل الذكي مع منتجات العصر وما أنشأه من مذاهب ورؤى ومفاهيم، قصد تيسير فقه معتقدات وأفكار الآخرين الذين لهم نسبة في صناعة الرأي مهما يكن الموقف منه. ولقد تمكن أولو الذكر في أمتنا من إبداع موازين فكرية فاعلة نفع الله بها الناس، ومن هؤلاء علال الفاسي ابن القرويين الذي أوتي حظاً كبيراً من قراءة ما أنتجه العقل الغربي الشيء الذي يسر له أهلية الربط الحكيم بين مختلف الثقافات والقدرة على الانتفاع من المنتج الفكري الإنساني بل؛ "ربما أمكن القول إنه أحد الأصوات العربية الإسلامية النادرة التي استطاعت أن تتكلم بلغة العصر دون أن تخرج من إهاب الإسلام وقيمه الجوهرية. ولكن من المؤكد أنه ظل حتى النهاية متشبهاً بفكرة ميزت معظم سابقه، فكرة التركيب بين الأصول الروحية والعقلية الإسلامية"¹⁰. فلا غرابة أن يكون "لا جمود ولا جحود" عنواناً لأول مقال نشره في دعوة الحق العدد الأول يوليو 1957¹¹، وأن ينادي إلى تحرير العقول من خرافات الماضي ومضللالات العصر الحديث"¹²، وأن يعرض أفكاره بعيداً عن التحنيط أو التنميط، بل لتكون دلالات

¹⁰ أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، د فهمي جدعان، ص 344

¹¹ علال الفاسي في موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة، عبد القادر الإدريسي، ص 213.

¹² مسألة الحرية في فكر وممارسات علال الفاسي، مصطفى القباچ، ص 285

على حركة العقل، تتوسل قارئها ليستقبلها بعين ناقدة حتى يستكمل نقصها، فهي ليست نهائية حتى عند صاحبها
13.

الحاضنة الرابعة: استثمار خصائص منتوج بنية العقل المسلم المالكي العام

تتميز المدرسة المالكية بكثرة مصادرها وأصولها التي تستنبط منها الأحكام، وهناك أصول ممتازة جدا يمكن استثمارها في هذا الباب: - المصلحة المرسلّة، وهو باب واسع، - فتح الذرائع ومثلها سد الذرائع، - شرع من قبلنا هو شرع لنا، وما زال أناس على شرع من قبلنا، وإذا كان شرع من قبلنا فيه الكثير مما يمكن أن نأخذه ونعتمده وآخر نختلف معه، فهذا مدخل إلى التعايش، وفق: - مراعاة الخلاف، - الخروج من الخلاف خير من الوقوع فيه، وقس على ذلك أصولا أخرى تدلك على أن هذا المذهب يحتاج إلى من يحسن شرحه، إلى جانب الدرس الاشعري في تناول قضايا العقيدة على سنن صنيع الأستاذ الطاهر ابن عاشور في كتابه "التحرير والتنوير" إذ عرضها بطريقة مقنعة كاشفة عن الحاجة إلى الدرس العقدي القائم على تجديد مناهج تناول قضايا أصول الدين. ثم إن الإمام مالك رحمه الله رفض أن يُفرض كتابه "الموطأ" على الناس فرضا، وإنما يُدعى إليه المكلفون ويُبلَّغوا بما جاء فيه.

الحاضنة الخامسة: صناعة الإمامة والقيادة وصياغة الشاكلة الفكرية

تتبوأ مراكز صناعة القرار الفكري منزلة متميزة في إنتاج الأفكار وصياغة الأجهزة المفاهيمية الممكنة للتعايش الإيجابي، ومن ثم حاجتها إلى ضوابط تسندها وتفعّل مهامها الكبرى. لأجل ذلك يصنف الناس من حيث معيار الفكر والحركة إلى أقسام ثلاثة:

- صنف لا يفكرون إلا قليلا مذبذبين؛ لا إلى مختبر صياغة الفكر ينتمون، ولا إلى حركي الجهد المادي ينضمون، وهم لا يمتلكون قرارهم بشكل حر مستقل، بل هم صدى لفلسفة حياة غيرهم.
- صنف يفكر ولكن لا أثر لذلك على واقعه، وقد يكون مَرَد ذلك اختلال في طريقة التفكير وفوضى سطحية في المعرفة.

- الصنف الثالث: يجمع بين خلق التفكير وعبادة التحرك؛ إنهم يحبون وهم يتفكرون، حركتهم أثر لأفكارهم، وفكرهم نابع من حركتهم، ينطلقون منها ليطوروا مجالاتهم ويستكملوا نقائصهم ويرتقوا إلى مستويات ثقافة التساكن المجتمعي.

عندما يسكن هم الفكر والحركة روح الإنسان ويهيمن عليه، يحببه ويجعله يمشي في الناس بنور برنامج منظم، وفق تخطيط يعصم الطاقات من التبدد والجهود من التخطي، ويعجل من تحقيق الأهداف بذكاء وإتقان. إن التفاعل الإيجابي بين إرادة الفكر وإدارة الحركة كفيل بإغراء ذوي الفطر الصافية والأرواح النقية لاحتضان مشروع التساكن وإلحاق الخير بالخلق. كلٌّ ينفق مما عنده؛ فمنهم ذوو البصائر والعرفان ومنهم أصحاب بسطة في المال والحكمة، ومنهم من يجمع هذا وذاك.

المبحث الرابع: أهم ضوابط مراكز صياغة الشاكلة الفكرية

الضابط الأول: محوية الذات واندماج الجزء في الكل

يتأسس المعنى الحقيقي للفكر الجماعي من خلال تماهي أفراد مع هدف الفريق المشترك والتضحية بكل هدف خاص يتعارض أو يؤخر تحقيق المتفق عليه، ومن ثم يفترض في عناصر جماعة التفكير السعي جماعيا بعنوان (نحن) بدلا من (أنا).

وفي سبيل تأكيد اندماج الفرد في الفريق والتحدث باسمه كأنه هو، ومقابلة الآخرين بسعي واحد وخطة واحدة جمعت عقولا وخبرات متعددة، يتعين استحضار أن الزمان زمان المؤسسات، وأن قدرتها على الامتداد رهينة بربط تحول تصوراتها إلى برامج وتمثل برامجها في مشاريع قائمة يحتضنها المجتمع.

ثم إن هذه القدرة متوقفة كذلك على استيعاب طبيعة الإنسان الاجتماعية والرغبة في الظهور مع الآخرين، ولذلك يحتاج الأفراد إلى توجيههم في هذا السياق ليتم ذلك على بصيرة نافعة للمجموع. ومن أبرز تجليات "المحوية" احاء التمحور حول الذات، ونسبة الفعل للآخرين حتى لو كان الفرد هو صاحب هذا الخير الكبير.

الضابط الثاني: انتهاج سبيل التلطف وتجنب استرضاء الجماهير

مما يعاب في عمل مراكز صناعة القرار الفكري وهو يستهدف خدمة الناس حرصه على استرضائهم في جميع الأحوال وجذبهم بأي طريقة ليكون له موقع داخل المجتمع. إن هذا الخطأ لا يقل خطورة عن الاصطدام مع الآخرين وفتح جبهات الصراع معهم.

وأشد من ذلك نكرا، أن تجد طبيبا يستشير المريض الجاهل في الدواء الذي جاء يطلبه عند أهل الذكر، أو أن تجد قادة الفكر يحاولون إرضاء أهواء من كُلفوا بإصلاح شأنهم وتدير طريقة علاج اختلالاتهم النفسية والتربوية والسلوكية.

الضابط الثالث: مركزية التخطيط

ما أكثر الأفكار التي أبدعها الأفراد أو الجماعات، وقد يكون منها السديد والرشيد، ولكنها لم تجد لها سبيلا إلى واقع المجتمعات أو أنها عند التنزيل تشوهت بترجمة غير مدروسة وبعمل غير مبرمج بالدقة المطلوبة، أو لم توفر أثناء ذلك الظروف المناسبة وفق رؤية واضحة بصيرة.

والناظر إلى حركة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يسترعى انتباهه حضور التخطيط في مجالات دعواتهم وهدايتهم. حيث إن من مقتضيات ثقافة التخطيط فقه السنن وحسن اختيار الأسباب ودراسة النتائج المتوقعة، ووضع الاحتمالات الممكنة، وإدراك حجم الإمكانيات المتوفرة، وتصور واقع العوائق القائمة والحواجز المنتظرة.

الضابط الرابع: تحديد الهدف والمرابطة على التوجه إلى تحقيقه

إن تحديد الهدف مطلب أساس للعمل الجاد، وعنصر رئيس لتحقيق نقلة نوعية للمجتمعات، وركيزة أساسية لإنجاز المشاريع الكبرى والصغرى، المتوسطة أو البعيدة المدى. والذين يمشون في الأرض بدون أهداف محددة ويطنون أنهم على شيء يخطئون السبيل ويفشلون فشلا كبيرا.

وعندما يمشي القائمون على مؤسسات صناع الفكر والرشد على نور من هدفهم الكبير وإضاءة من أهدافهم التي برمجوها لها، وتمت أجزائها وتحيينها، يتمكنون من ضبط سيرها ووقايتها من فقدان وجهتها.

ثم إن توحيد الأهداف وسموها ييسر الطاقات ليسرى ويجنبها العسرى التي تحبط الأعمال فتشقى بذلك مراكز صياغة الشاكلة الثقافية التي تسعى بدون وحدة الهدف، مما يؤدي إلى عواقب أقسى عناوينها سراب حسبه الظمان إلى الإنجازات شيئا فلما فحسه عن قرب لم يجده شيئا فارتد نظره حسيرا.

كم من طاقات بخس الناس حقها وزهدوا فيها وفي أهلها لأنها لم توجه نحو هدفها السامي المحدد، وكم من قدرات تم إغفالها وإهمال أصحابها لأنها وضعت في سياق التنازع بدل التناغم فحرم المجتمع من خبراتها، وكم من جهود لو ضمت إلى بعضها لكان وراء ذلك قوة كبيرة عجبت البشرية.

الضابط الخامس: سياج الانضباط

من أهم ما يُمكن سعي المراكز الفكرية من محافظتها على توجهها الجماعي وسيرها وفق الوعي الجمعي التزام أفرادها بقواعد التشاور والاستماع إلى ذوي الخبرات والكفاءات، والتسليم بما يسفر عنه تبادل الرأي، والسعي لتطبيق ما اتفق عليه حتى لو خالف بعض وجهات النظر. بل إن المخالف لا يقل حماسة عن إنجاز ما أوصلت إليه الشورى، فتراه يمثل رأي الفريق أو المؤسسة ويدافع عنه.

الضابط السادس: الإيجابية والعكوف على الإمكانيات الذاتية

يستهدف العمل الجماعي تحريك الطاقات وتوجيه القدرات ودمجها لإنجاز مشاريع محددة، وهو مدعو إلى محطات تأمل ذاتية للتقييم وقياس المراحل التي تم عبورها نحو الأهداف، وإلى وقفات إلزامية عندما يصطدم بعوائق التعايش.

لأجل ذلك يتعين امتلاك القدرة على التفاعل الإيجابي مع الظروف المتعددة ورفض الاستسلام لها، عن طريق الإبداع في صياغة البدائل الممكنة وتحديد المناهج للانطلاق في سياقات متطورة. والذي ينظر إلى الواقع المناقض للإيمان بعدسة حركية الفكر يرى آثام الآخرين وانحرافات المجتمع مشاريع لاغتنام الحسنات عن طريق الصبر عليها وعدم التأثير بها، وعن طريق البحث الجماعي لإصلاح ما يمكن إصلاحه ووضع خطط للخدمة هؤلاء بهداياتهم ونصيحتهم؛ روى الإمام مسلم في صحيحه: عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعْثِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالتَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَائِهِمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ." ¹⁴

ولقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يرزقه ومن اتبعه، ثم نبهه ربه إلى سعة عطاءات الربوبية خلقه أجمعين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة آية 126].

ثم ترى الخليل عليه الصلاة والسلام يبدي رجاءه تأخير العذاب بحجة وجود لوط عليه السلام بينهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت آية 31 - 32] وقال

¹⁴ كتاب الفضائل، باب شفقتي صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، ح 2283.

تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود آية 74-75].

خاتمة البحث

خلص البحث إلى أن بناء تعايش إيجابي في مجتمع متعدد الثقافات لا يتحقق بالشعارات المجردة ولا بإلغاء الاختلاف، وإنما بإعادة بناء العلاقة بين الناس، انطلاقاً من الإقرار بالتنوع، والاعتصام بقيم الكرامة والعدل والبر والقسط. كما أن التعايش يفتقر إلى وعي حضاري يحمي الخصوصيات من الذوبان، وفي الوقت نفسه يمنع الانغلاق الذي يحول الهوية إلى أداة إقصاء. من هنا تبرز أهمية القيم المشتركة، والحوار، ومراعاة الخلاف، والتخطيط المؤسسي، وصناعة القيادة الفكرية القادرة على ترجمة المبادئ إلى مبادرات عملية ومن ثم جاء التأكيد على أن المرجعية الإسلامية، حين تُقرأ قراءة مقاصدية واجتهادية واعية، قادرة على الإسهام في بناء ثقافة تعايش، تحفظ الاختلاف وتمنع الصدام وتيسر التعاون الإنساني.

بناء على ما ذكر فإن المقالة تركز على النتائج الآتية:

- التعايش لا يستلزم تذويب الفوارق الدينية والعقدية، بل يقتضي حرية اختيار الناس، وتجنب خطيئة التنميط والتحنيط الثقافي والإكراه الديني.
- يمكن للتراث المالكي الأصولي، من خلال أصول مثل المصلحة المرسلة ومراعاة الخلاف وفتح الذرائع وسدها، أن يوفر أدوات اجتهادية مؤسسة للتفكير الرشيد في قضايا التعايش.
- يتوقف نجاح مشاريع التعايش على قيادة فكرية، ومؤسسات قادرة على تحويل المبادئ إلى برامج، مع التخطيط وتحديد الأهداف، والتقييم المستمر.
- الوعي بالذات الحضارية لا يتعارض مع الانفتاح على الآخر؛ بل إن المنهج الأهدى هو الجمع بين الثبات على المرجعية والتفاعل مع منجزات العقل والعصر.

توصيات

لأجل ذلك كله يوصي البحث بما يأتي:

- أولاً: إدماج ثقافة التعايش وإدارة الاختلاف ضمن البرامج الجامعية والتربوية، بالتوسل بالدراسات البينية التي تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية في تداول الشأن الثقافي.
- ثانياً: مأسسة الحوار الثقافي والديني وتعزيز خطاب إعلامي وتربوي ناقد للصور النمطية والفهم المسبقة عن الآخر.
- ثالثاً: تشجيع البحث في التراث المالكي الأصولي لاستخراج أدوات اجتهادية قابلة للتوظيف في قضايا التعايش المعاصر.
- رابعاً: ربط مشاريع التعايش بالتخطيط والتقييم، وقياس الأثر وتجاوز الاقتصار على المبادرات الظرفية.

مراجع البحث

1. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الأنجزي الفاسي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، 1419 هـ.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ.
3. ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419 هـ.
4. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ.
5. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420 هـ.

6. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.

7. جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط3، دار الشروق، 1988.

8. الإدريسي، عبد القادر، علال الفاسي في موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة.

9. الفاسي، علال، النقد الذاتي، ط1، 1952.

10. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة فؤاد شاهين، وجميل قاسم، ورضا الشايب، إشراف ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1993م.

11. فريتس شتبات، الإسلام شريكاً: دراسات عن الإسلام والمسلمين، ترجمة عبد الغفار مكاي، بيروت، 2004م.

12. القباج، مصطفى، مسألة الحرية في فكر وممارسات علال الفاسي.

13. هنتغتون صموئيل، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوة، القاهرة، 1998م.

Bibliography List

1. Ibn 'Ajība, Abū al-'Abbās Aḥmad ibn Muḥammad ibn al-Mahdī al-Ḥasanī al-Anjarī al-Fāsī, *Al-Baḥr al-Madīd fī Tafsīr al-Qur'ān al-Majīd*, edited by Aḥmad 'Abd Allāh al-Qurashī Rislān, Cairo, 1419 AH.
2. Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Tāhir ibn Muḥammad ibn Muḥammad al-Tāhir al-Tūnisī, *Taḥrīr al-Ma'nā al-Sadīd wa-Tanwīr al-'Aql al-Jadīd min Tafsīr al-Kitāb al-Majīd*, Tunisian Publishing House, Tunis, 1984.
3. Ibn Kathīr, Ismā'īl ibn 'Umar al-Qurashī, *Tafsīr al-Qur'ān al-'Azīm*, edited by Muḥammad Ḥusayn Shams al-Dīn, Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, Beirut, 1st ed., 1419 AH.
4. Al-Ālūsī, Shihāb al-Dīn Maḥmūd ibn 'Abd Allāh al-Ḥusaynī, *Rūḥ al-Ma'ānī fī Tafsīr al-Qur'ān al-'Azīm wa-al-Sab' al-Mathānī*, edited by 'Alī 'Abd al-Bārī 'Atīyyah, Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, Beirut, 1st ed., 1415 AH.

5. Al-Baghawī, Abū Muḥammad al-Ḥusayn ibn Mas‘ūd ibn Muḥammad al-Farrā’, ***Ma‘ālim al-Tanzīl fī Tafsīr al-Qur’ān***, edited by ‘Abd al-Razzāq al-Mahdī, Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, Beirut, 1st ed., 1420 AH.
6. Tanṭāwī, Muḥammad Sayyid, ***Al-Tafsīr al-Wasīṭ lil-Qur’ān al-Karīm***, Dār Nahḍat Miṣr for Printing, Publishing and Distribution, Cairo, 1st ed.
7. Jad‘ān, Fahmī, ***The Foundations of Progress According to Muslim Thinkers in the Modern Arab World***, 3rd ed., Dār al-Shurūq, 1988.
8. Al-Idrīsī, ‘Abd al-Qādir, “‘Allāl al-Fāsī,” in ***Encyclopedia of the National Movement and Resistance***.
9. Al-Fāsī, ‘Allāl, ***Self-Criticism***, 1st ed., 1952.
10. Francis Fukuyama, ***The End of History and the Last Man***, translated by Fu‘ād Shāhīn, Jamīl Qāsim, and Riḍā al-Shāyibī; supervised, reviewed, and introduced by Muṭā‘ Ṣafadī, Beirut: National Development Center, 1993.
11. Fritz Steppat, ***Islam as a Partner: Studies on Islam and Muslims***, translated by ‘Abd al-Ghaffār Makkāwī, Beirut, 2004.
12. Al-Qabbāj, Muṣṭafā, ***The Question of Freedom in the Thought and Practices of ‘Allāl al-Fāsī***.
13. Samuel P. Huntington, ***The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order***, translated by Ṭal‘at al-Shāyib, introduction by Ṣalāḥ Qinqūwah, Cairo, 1998.